

المحاضرة السابعة: الماركسية

ركزت الماركسية في تحليلاتها للمجتمع على الجانب المادي كمحرك أساسي للتاريخ، وعلى الصراع الطبقي كعامل أساسي للتطور، بمعنى أنها جعلت من الصراع محور العلاقات الاجتماعية.

وتقوم الماركسية على مسلمتين أساسيتين:

العامل الاقتصادي (المادي) المتمثل في وسائل الإنتاج وعلاقاته هو المحدد الأساسي لبناء المجتمع وتطوره، وهو الذي يحكم تشكل كافة مظاهر الحياة الاجتماعية (القانون، الثقافة، السياسة) أي البناء الفوقي.

النظر للمجتمع نظرة جدلية: الفكرة ونقيضها.

تسمى الماركسية كذلك بمنظور الصراع الذي يرجع إلى أفكار كارل ماركس في منتصف القرن التاسع عشر، حيث أكد على الصراع الملازم للمصلحة بين البروليتاريا والبورجوازية.

وينظر منظور الصراع للمجتمع على أنه حالة مستمرة من الصراع بين الجماعات والطبقات في اتجاهه نحو التغير والتطور. وعلى الرغم من أن الماركسية (منظور الصراع) تنظر للمجتمع نظرة بنوية (تدرس البناء الاجتماعي)، إلا أنها تختلف تماما مع البنائية الوظيفية؛ ففي الوقت الذي ترى فيه البنائية الوظيفية أن البناء الاجتماعي في حالة اتزان واستقرار، تؤكد الماركسية على الصفة الصراعية والمتغيرة للمجتمع.

ويعتبر الصراع ظاهرة صحية وإيجابية في الفكر الماركسي، لأنه العامل الأساسي الذي يضمن للمجتمعات تطورها، حيث أن التناقض الكامن في المصالح بين فئات وطبقات المجتمع يجعلها في حالة صراع دائم هو الذي يضمن استمرار عملية التغير في المجتمع.

ويمثل تصور ماركس للمجتمع في أن البورجوازية (أرباب الأعمال) يملكون الجانب الأكبر من وسائل الإنتاج، نتيجة لمكانتهم في المجتمع، وهو ما يمنحهم القوة التي يستخدمونها لاستغلال البروليتاريا لزيادة أرباحهم ورؤوس أموالهم.

كيف تستغل البورجوازية البروليتاريا؟

نتاجا لقلة فرص العمل ووفرة اليد العاملة، يلجأ الرأسمالي لتشغيل العامل لساعات طويلة، وبأقل أجر ممكن، دون فترات للراحة ولا مطالبة بحقوق إضافية وإلا تم فصله بسهولة لأن هناك من ينتظر فرصة لتشغيله.

يتنافس الرأسماليون لزيادة أرباحهم على حساب البروليتاريا، وفي حالات الكساد، يخفض الرأسمالي الأجور إلى حد أدنى، ثم يرفض إعادتها للمستوى الذي كانت عليه في حالة الازدهار الاقتصادي، وهو ما يجعل البروليتاريا في حالة بؤس دائم.

نتاجا لهذا الاستغلال، وتعرض البروليتاريا لبؤس شديد، تبدأ في المطالبة بحقوقها، وهو ما يزيد من استغلال البورجوازية لها، وتصل البروليتاريا لتشكيل وعي طبقي يسمح لها بالاتحاد لمجابهة استغلال الرأسماليين (البورجوازية)، فتتحد الطبقة العاملة وتدمر في ثورة عنيفة النظام الرأسمالي وتتحكم هي في وسائل الإنتاج لتقيم نظام اقتصادي واجتماعي بديل (الاشتراكية)

بناء على هذه التحليلات، فقد نحت ماركس مفهوم الطبقة التي يرى أنها: تجمع من الأشخاص تنجز عملا واحدا في إطار عملية إنتاجية واحدة وتختلف باختلاف وضعها الاقتصادي وموقعها من عملية الإنتاج، أي أن الطبقة تتحدد في ضوء المهام المشتركة في عملية الإنتاج.

يؤكد ماركس على أن المتغير الأساسي لنشوء الطبقة هو الملكية، وأن المتغير الوسيط هو تقسيم العمل، ويقول: دعني أخلص لك أنه كلما ازداد الإنتاج الرأسمالي نموا، كلما نما تقسيم العمل واتسع استخدام الآلات كلما زادت المنافسة بين العمال وانخفضت أجورهم وتلك هي الظروف الموضوعية لنشأة طبقة العمال.

وعلى الرغم من التأثير الذي أحدثته الماركسية التقليدية في التنظير السوسيولوجي، إلا تحليلات ماركس للمجتمع قد أصابها بعض الذبول كما يشير إلى ذلك أناتول رابوبورت أحد منظري اليسار الجديد، حيث أن الطبقة العاملة لم تعد كما تصورهما ماركس، بل شهدت برجوزة حولت العمال إلى شبه موظفين تلتحم مصالحهم بمصالح النظام الذي يعيشون فيه.

الماركسية المحدثّة: إذا كان ماركس قد اعتبر الصراع بين الطبقات الاقتصادية هو القوة الأساسية في المجتمع، فإن الماركسيون المحدثون يرون أن الصراع لا يحدث فقط بين طبقات المجتمع بل بين أي طرفين في المجتمع يشعر واحد منهما بالنقص. لذلك قام الماركسيون المحدثون بدراسة الصراع بين الرجل والمرأة، بين البيض والسود، بين الجماعات الدينية، بين الكبار والصغار... وبالتالي فالصراع يتعدى البعد الاقتصادي الذي حصره فيه ماركس.

من بين الماركسيين المحدثين لويس كوزر؛ حيث تتضمن نظريته للصراع عناصر من المنظور الوظيفي وعناصر من منظور الصراع، حيث ألف كتابا أسماه: وظائف الصراع الاجتماعي (1950)، معرّفا الصراع كجانب مهم من جوانب الحياة الاجتماعية على أنه: الكفاح حول القيم والمطالبات بالمكانة النادرة والقوة، والموارد، كما أنه يتمثل في تلك الحالة التي يكون فيها هدف الجماعات المتصارعة التخفيف من حدة الضرر أو الإصابة أو التخلص من منافسيهم.

درس كوزر وظائف الصراع، مؤكدا على أن الصراع بين جماعتين يمكن أن يؤدي إلى زيادة ترابط وتماسك كل جماعة منهما داخليا. كما قد يفيد الصراع في لفت انتباه صناع القرار لضرورة إحداث إصلاحات في المجتمع.

وفي سياق آخر نجد رالف داهرنديروف (الصراع الطبقي في المجتمع الصناعي 1959)، الذي ردّ الصراع لعوامل غير اقتصادية تكمن في امتلاك السلطة، فقد يحدث الصراع بين المدير ونوابه، بين الرجل والمرأة، بين الآباء والأبناء وبين التلاميذ والمدرسين....

هذا ويشير داهرنديروف إلى نشوء طبقة وسطى بين البورجوازية والبروليتاريا، تساهم في ظهور مجتمع ما بعد الرأسمالية. كما نجد أفكار فرانك باركن حول القيم والصراع في المجتمعات الحديثة، الذي حاول تحليل المصادر الاجتماعية المؤدية للاستقرار في المجتمعات الحديثة، مؤكدا أن الصراع يرجع إلى الامتيازات التي تتمتع بها فئة دون غيرها إضافة إلى الاختلاف في القيم والوعي بين الطبقات، مما يحدث حراكا اجتماعيا.

وأفكار دافيد لوكود التي عرضها في كتابه النسق والطبقية في المجتمع الحديث الذي نشره عام 1968 ، وقد درس مع زملائه العمل المتترف، ويرى أن صغار الموظفين يبنون إدراكات مزيفة عن الواقع الاجتماعي بناء على مكانتهم داخل هذا البناء، ما يجعل عليهم الاجتماعي زائفا.

ولقد لاقت الماركسية المحدثه كما الماركسية نقدا تمثل في تأكيدها على عملية الصراع وضعف اهتمامها ببقية العمليات التي تضمن للنظام والبناء الاجتماعي استقراره، كما أن المنظور الماركسي منظور لم يعتمد - مثله مثل البنائية الوظيفية - على الأساليب الإحصائية، مما يقلل من مصداقية التعميمات التي توصل لها هذا المنظور بخصوص الحياة الاجتماعية.

مقارنة بين الماركسية والبنائية الوظيفية:

تتمثل نقطة الاتفاق بينهما في أن كليهما يهتم بتحليل الوحدات الاجتماعية الكبرى، ويرسم صورة كلية وشاملة عن المجتمع. غير أن كل منظور يتهم بمظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية، في الوقت الذي يهتم في المنظور الماركسي بالصراع والثورة والتغير، يهتم فيه المنظور البنائي الوظيفي بالتعاون والتوازن والاستقرار.

وفي الوقت الذي يرى فيه الماركسيون أن الصراع ظاهرة إيجابية وعامل أساسي من عوامل التغير، يرى البنائيون الوظيفيون أن الصراع ظاهرة سلبية تهدد استقرار البناء الاجتماعي وانسجام أجزائه.

ومن حيث الطبيعة البنائية للمجتمع، يرى الماركسيون أن المجتمع كبناء مكون من طبقات متعارضة المصالح، بينما يرى البنائيون الوظيفيون أنه مكون من أجزاء متكاملة ومتساندة.

كما يرى المنظور الماركسي أن أساس التفاعل الاجتماعي يكمن في الإكراه، العنف، الصراع، القهوة، بينما يرى البنائيون الوظيفيون أن أساس التفاعل الاجتماعي هو الاتفاق القائم بين الوحدات الاجتماعية التي تربطها قيم ومعتقدات مشتركة.

راجع:

عبد الباسط عبد المعطي، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، 1998.

محمد عبد الكريم الحوراني، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، 2008.

جون سكوت، خمسون عاما اجتماعيا أساسيا: المنظور المعاصر، 2009.

شحاتة صيام، النظرية الاجتماعية من المرحلة الكلاسيكية إلى ما بعد الحداثة، 2009.

السيد رشاد غنيم وآخرون، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، 2008.